البحوث والدراسات الآثارية عن حضارة نبتة الكوشية وارتباطها بتطور علم الآثار: دراسة تقويمية

جمال جعفر عباس

ملخص: تميز التاريخ السوداني بتراث حضاري ومجموعات ثقافية متفردة. وقد كان لعلم الآثار أكبر الأثر في الكشف عن هذا التراث، ومن بين ذلك التعرف على ملامح وسمات واحدة من أهم حضارات السودان القديم، هي حضارة نبتة الكوشية (٨٥٠ ق. م -٣٠٠ ق. م). فقد شهدت السنوات الأولى من القرن العشرين أولى محاولات تنقيب وتحليل وتفسير مخلفات هذه الحضارة، إلا أنها كانت مسيرة لوجهة النظر السائدة آنذاك، المرتبطة أساساً بنظريات الانتشار والهجرة والتفسيرات العرقية المختلفة. وهو أمر وقع فيه العديد من الباحثين الأوائل، الذين درسوا هذه الحضارة. بدأ هذا الوضع في التغيّر شيئاً فشيئاً، مع تطور نظريات علم الآثار ومناهجه وتقنياته. وشهد العقدان الأخيران من القرن العشرين طفرة مهمة، في الدراسات والبحوث المتعلقة بهذه الحضارة. ويقدم هذا البحث تقويماً لهذا التطور، ومحاولة لربطه بالتطور العام لعلم الآثار.

Abstract. *The Sudan's history is characterized by its unique cultural heritage. Through the discipline of archaeology most of this heritage has been uncovered and allowed us to recognize the aspects of one of the most important civilizations of ancient Sudan, the Kushite kingdom of Napata (850-300 BC). The early years of the 20th century witnessed handful of excavations, analyses and explanations of the remains of that civilization. Unfortunately, most of these interpretations were affected by the general theoretical trend at that time which attributes cultural changes to the diffusion, migration, or racial interpretation. The situation has started to change with the developments achieved in theories, methods and techniques of archaeology whereby the last decades of the 20th century have witnessed new steps towards the understanding of Sudanese civilizations. This paper attempts to evaluate these developments in Sudanese archaeology and to link it to the general development of the discipline of archaeology.*

تتناول هذه الورقة تقويماً عاماً للنظريات، التي تناولت حضارة نبتة الكوشية، وهي نظريات جاءت نتاجاً للبحوث والدراسات الآثارية، التي أجريت حول مواقع هذه الحضارة في منطقة ازدهارها في شمالي السودان (الخريطة ١). ولعل تقويم هذه النظريات يعتمد على منهجية البحث الآثاري في المقام الأول. وحتى يؤتي هذا التقييم ثماره، فلا بد من ربط هذه النظريات بتطور علم الآثار، في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين.

تاريخ علم الآثار وتطوره

مما لا شك فيه أن الحديث عن علم الآثار، فضلاً عن تاريخه وتطوره، ينبغي ألا يكون موجزاً؛ لأن مدارك هذا العلم تتسع إلى حد بعيد. إلا أن ما تمليه طبيعة هذه الورقة تحتم الإيجاز.

بدأ علم الآثار في مرحلته الأولى على يد صائدي الكنوز، إلى جانب لمحات من الإعجاب والانبهار من قبل الرحّالة والهواة، أدت إلى نوع من وصف المواقع والتعليق عليها في كثير من بلدان العالم القديم. ثم أعقب ذلك، في مرحلته الثانية، جهود بعض الباحثين والمستكشفين، الذين ثابروا على وصف المواقع وجمع النصوص الكتابية للحضارات القديمة وعكفوا على حل رموز هذه النصوص وتفسير مضامينها. وقد اقترنت هذه الجهود بكثير من المحاولات لاستخراج الآثار من مواقعها، بأيدي بعض العلماء أحياناً وبعض المغامرين أحياناً أخرى. ثم انتهى ذلك في مرحلته الثالثة إلى عمليات التحليل وإعادة التركيب لهذه الآثار ونصوصها، في إطار من الالتزام

العدد التاسع ذو الحجة ١٤٢٤هـ - يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٤م
(ص ص ٣٣ - ٤٢) ردمد ١٣١٩-٨٩٤٧

العلمي ومسؤولية التاريخ (Daniel 1975).

بعد ذلك تغلغل علم الآثار بين معالم الحضارات القديمة، لا سيما المصرية والبابلية والآشورية والإغريقية والرومانية والبيزنطية وغيرها، وإن جُذب في كثير من الأحيان إلى السعي - بالقصد حيناً وبالمصادفة حيناً آخر- إلى القول بوحدة النفس البشرية وأخوة البشر والحضارات، على الرغم من اختلاف الأجناس واللغات والمواقع. وكانت هذه واحدة من الأطروحات النظرية في علم الآثار، أعقبتها أطروحات أخرى (Ibid).

وتواصلت مسيرة هذا العلم بعد ذلك وتنظّم تدريجياً، ولم يعد اهتماماً فردياً يختص به الأفراد، بل أصبحت له هيئات منظمة من الأكاديميات والمعاهد والجامعات، ما أحدث منافسة مستمرة بين هذه المنظمات، أدت بالضرورة إلى ارتفاع مستوى العلم وتعدد مجالاته، وزيادة أعداد المتخصصين فيه.

نتج عن ذلك أن أسهم علم الآثار، بشكل فاعل، في كتابة تاريخ حضارات غابرة، وكشف اللثام عن أمم مجهولة، وتجارب إنسانية مختلفة، ليس في الشرق الأدنى فحسب، وإنما في الهند والصين وإفريقيا وأمريكا اللاتينية وغيرها. وعلى الرغم من أهمية هذا العلم، لاسيما لبلدان الشرق القديم، إلا أن بداياته كانت مجالاً خصباً وواسعاً لنهب تراث هذه البلدان وكنوزها، ما جعلها هدفاً دائماً ومستمراً لكل من سوّلت له نفسه جمع الآثار.

الموقع الجغرافي لحضارة نبتة الكوشية

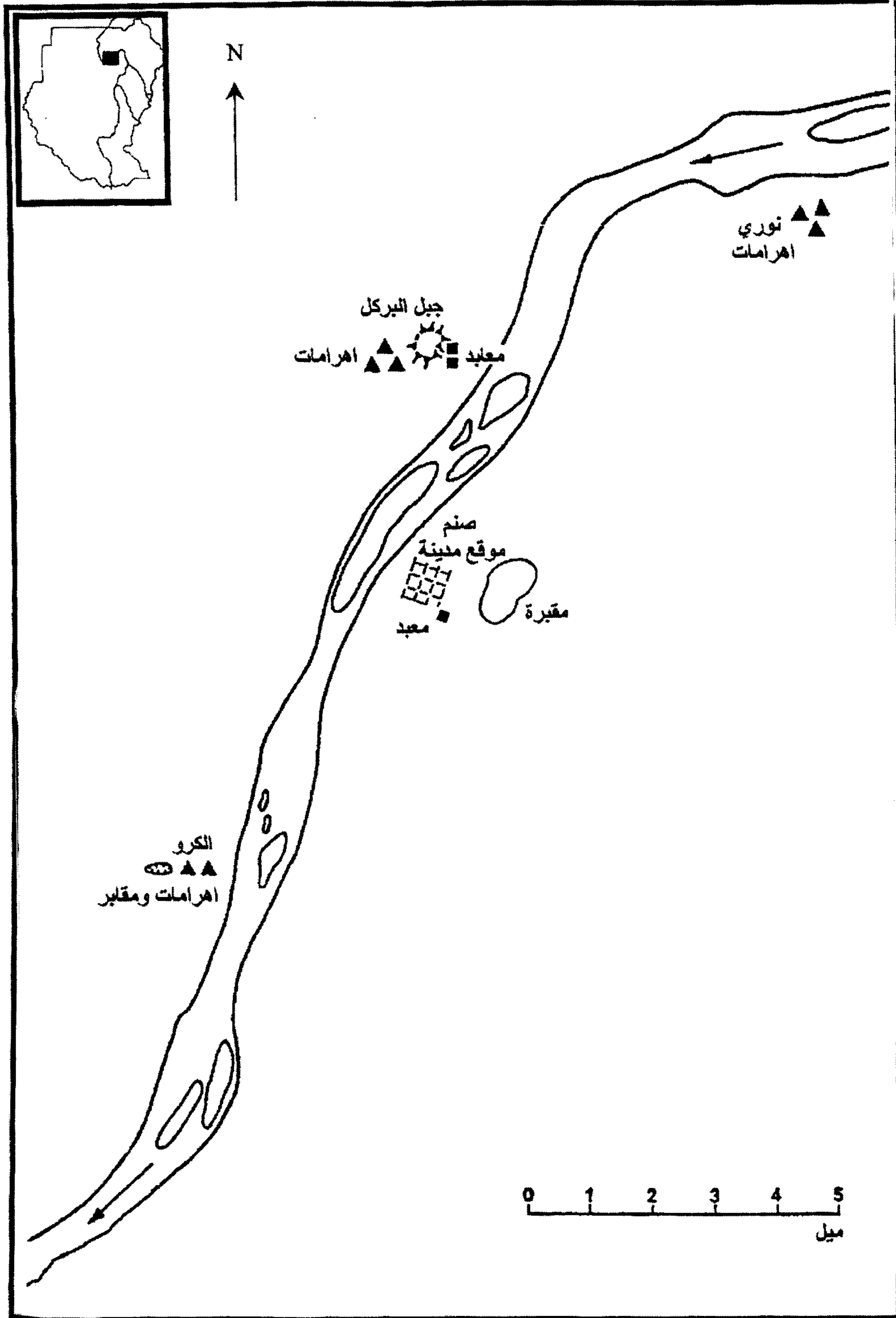
اعتمدت الدراسات والبحوث الآثارية، التي أجريت في مواقع حضارة نبتة الكوشية، في المقام الأول على الأوصاف، التي كتبها الرحّالة الكلاسيكيون من الإغريق والرومان. ولكن قبل الخوض في موضوع هذه البحوث والدراسات، نتساءل: ما هي نبتة؟ فعند طرح هذا التساؤل نقف عند إحدى المشكلات الرئيسة في الحضارة النبتية، باعتبار أن موقع نبتة لم يحدد حتى الآن بشكل قاطع، لدى كثير من الباحثين والمهتمين بالآثار السودانية.

لقد اختلفت الآراء حول نبتة، ماهيتها وموقعها الجغرافي، هل هي مدينة أم إقليم؟ وإن كانت مدينة، فما هو موقعها تحديداً؟ وكان أول الباحثين الأكاديميين في مواقع هذه الحضارة هو الآثاري الأمريكي جورج اندرو رايزنر، أستاذ علم المصريات بجامعة هارفارد، الذي حدّد موقع مدينة نبتة على ضفتي النيل، في المنطقة بين نوري والكرو؛ ولكن الضفة الغربية للنيل ربما تكون هي المكان المفضل لإطلاق اسم نبتة عليه، وهو موقع جبل البركل (Reisner 1917: 23)، (الخريطة ١). أما دوس دانم، المساعد الأول لرايزنر، فيعتقد أن نبتة ارتبطت بالمركز الديني، الذي يختص بعبادة الإله آمون في جبل البركل بالقرب من مدينة كريمة (Dunham 1950: 5).

وقد أطلق كل من رايزنر ودانم على الفترة التاريخية من الأسرة ٢٥ وحتى وفاة الملك نستاسين اسم: مملكة نبتة (٨٠٠-٣٠٠ ق. م)، اعتماداً على أن ملوك هذه الفترة دفنوا في منطقة نبتة (الكرو ونوري) (Dunham 1947: 7). وعلى هذا الأساس ساد اعتقاد أن نبتة منطقة، وليست مدينة تشمل الكرو ونوري وجبل البركل (الخريطة ١).

كذلك يرى أنطوني جون اركل أن نبتة منطقة تقع في نهاية حوض دنقلا وأسفل الشلال الرابع، وقد عرفت منذ الأسرة المصرية ١٨ باسم (كاري - Karei)، على أنها منطقة أكثر من كونها مدينة (Arkell 1961: 110). ويضيف اركل أن جريفث (Griffith) أجرى حفريات في الأعوام من ١٩٢٢-١٩٢٣ إلى الشرق من معبد آمون، الذي بناه الملك "تهارقا" في موقع صنم أبو دوم، حيث كشف عن مبنى دارت الشكوك حوله، فيما إذا كان هو قصر ملوك نبتة. ومن ثم ظهر اتجاه يقول إن نبتة هي المدينة، حيث موقع صنم أبو دوم (مروى الحالية) (Ibid:112)، (الخريطة ١).

أما الآثاري الأمريكي تيموثي كندال (T. Kendall)، فقد كان يعتقد حتى عام ١٩٩٠م أن نبتة هي مدينة عند جبل البركل، وهي مدينة أسسها فراعنة المملكة المصرية الحديثة في حوالي ١٤٥٠ ق. م، كحامية عسكرية تتحكم في طرق التجارة وتسيطر على مجرى النيل، لتصبح بعد ذلك مركزاً سياسياً ودينياً مهماً عند قيام مملكة نبتة (Kendall 1990: 103). إلا أن كندال عدل عن رأيه هذا، بعد فحصٍ وتمحيص في يوميات رايزنر، التي عثر عليها في مخازن متحف بوسطن للفنون الجميلة، إذ كشف عن معلومات جعلته يعتقد أن نبتة هي مدينة، وهي بلدة الكرو الحالية، التي تقع إلى الجنوب من جبل البركل، بحوالي ١٥ كلم، وتحوي مقابر الأسرة الخامسة



الخريطة ١: المواقع النبتية الكوشية بمنطقة نبتة بالسودان.

والعشرين وأسلافهم (الخريطة ١).

من ذلك نرى أن الباحثين اختلفوا حول تحديد نبتة: هل هي مدينة أم إقليم؟ وفي هذه الورقة نرى أن نتمسك بأن نبتة هي حضارة وليست مدينة أو إقليماً، لأن هنالك مواقع أثرية تؤرّخ إلى الفترة النبتية، مثل موقعي الكوة، وصادنقا، تقعان خارج حدود الإقليم المشار إليه.

كتابات الرحّالة حول نبتة

إن معرفتنا بالحضارة السودانية تعتمد على كتابات الإغريق والرومان بشكل رئيس. فقد سجلت هذه الكتابات الكثير من المعلومات عن الحضارة الكوشية. وبتطور البحوث الآثارية، تدعّمت هذه المعرفة وأضيف إليها أبعاد جديدة. فقد كان السودان معروفاً لدى الإغريق منذ القدم باسم (أثيوبيا)، للدلالة على الأراضي الواقعة جوار مصر. وكلمة "أثيوبيا" تعني لون البشرة الداكنة، واتضح أخيراً أن الإغريق قصدوا بذلك الكوشيين، وحسب مفهوم الإغريق فقد عاملوا الكوشيين على أساس أنهم جزء من أثيوبيا.

وقد كتب هيرودوت بشيء من الإسهاب عن مملكة مروي (المرحلة الثانية من كوش، التي أعقبت نبتة، ٣٠٠ ق. م- ٣٥٠ م)، واصفاً امتدادها الجغرافي، وعلاقتها مع الفرس والبطالمة. وقد كتب آخرون من الرحّالة والمؤرخين عن عادات وتقاليد الكوشيين، أمثال ديوردورس الصقلي واسترابو؛ ثم انتقل هذا التراث إلى الكتّاب اللاتينيين، الذين أضافوا بدورهم بعض المعلومات المهمة، ومن بين هؤلاء بليني واسبلينكا وغيرهما، حتى فترة القرن الثالث الميلادي.

وفي عام ١٨٢١م أرسل محمد علي باشا، حاكم مصر، جيوشه إلى السودان للقضاء على المماليك، وللاستفادة من موارد السودان البشرية والطبيعية. وقد رافق هذا الجيش عدد مقدر من الرحّالة والمغامرين. وكان قد سبقهم الرحّالة براون، الذي ذكر قدراً من المعلومات القيّمة عن آثار السودان. كما زار السودان خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر الرحّالة كايو الفرنسي، الذي فحص بعض الآثار على ضفتي النيل. ويعد كايو من أوائل من كتبوا عن الآثار الكوشية، وذلك لنقله كتابات ومشاهد وجدها على جدران المعابد.

البحوث والدراسات المنظمة

تُعد الفترة من ١٨٩٨م والأعوام التالية، نقطة تحوّل كبيرة في تاريخ البحث الآثاري في السودان. فقد بدأ العاملون في المتحف البريطاني، وغيرهم، زيارة السودان. وأبرز هؤلاء السير واليز بدج، الذي زار السودان في الفترة من ١٨٩٦-١٩٠٣م، وأجرى حفريات في المدن والجبانات الملكية في البركل ومروي، بهدف الحصول على مواد للمتحف البريطاني. كما نشر ترجمات إنجليزية لبعض نقوش الملوك البارزين من نبتة، أمثال: بيي (Piye)، تانوتامني، اسبلتا، حاريستيوف ونستاسين. كما أجرى جون وارد في عام ١٩٠٢م مسحاً للأهرامات السودانية، ضمّنه مؤلفه (السودان أهراماته وتطورها).

وفي عام ١٩٠٧م بدأت حملة إنقاذ آثار النوبة الأولى، نتيجة للتعلية الأولى لخزان أسوان (Adams 1977: 71)، وأسندت رئاسة هذه الحملة لجورج أندرو رايزنر، وانتهت أعمال هذه الحملة عام ١٩١١م. إلا أن رايزنر عاد للسودان عام ١٩١٣م، على رأس بعثة مشتركة بين جامعة هارفاد ومتحف بوسطن للفنون الجميلة. وأجرى خلال الأعوام ١٩١٣-١٩١٦م تنقيبات أثرية في مواقع حضارة كرمة. ومن ثم قام رايزنر برحلات إلى مناطق الشلال الرابع ووادي حلفا مسجلاً عدداً كبيراً من المواقع الآثارية، التي لم يجر حفرها، ومن بين هذه المواقع جبل البركل والكرو ونوري. كما بدأ في دراسة النقوش والنصوص والسجلات، التي عثر عليها في هذا الإقليم. وفي عام ١٩١٦م قام رايزنر بسلسلة من الأعمال الآثارية، التي استمرت دون توقف حتى عام ١٩٢٣م، شملت منطقتي نبتة ومروي. وظل رايزنر يكتب عن كل ما قام به حتى وافته المنية عام ١٩٤٢م. وأوصى مساعده دانم بمواصلة نشر تقارير الحفريات، التي لم يتمكن من نشرها بنفسه (Dunham 1946: 378). وعلى وجه العموم، تعد أعمال رايزنر فصلاً قائماً بذاته في تاريخ البحث الآثاري في السودان، إذ شملت أبحاثه الفترة من القرن الحادي عشر قبل الميلاد حتى القرن الرابع الميلادي. كما تعد أعمالاً حقيقية ورائدة في مجال دراسة الحضارة الكوشية، فقد استطاع أن يضع اللبنات الأولى لعملية دراسية طويلة، اكتملت بواسطة باحثين آخرين جاءوا من بعده واعتمدوا على دراساته وأبحاثه (Hakem 1983: 41).

إلا أن دانم رأى أن هنالك حاجة لإعادة دراسة المواد، التي

استخرجت من حفرياتهما في مواقع حضارة كوش. ويرى دانم أن رايزنر تعجّل في نشر بعض تقاريره، باعتبار أن هذه الحفريات كشفت عن فترة تاريخية مجهولة وملوك مجهولين. واستطاع دانم أن يصنف بعض الحقائق عن الفترة الكوشية، لا سيما أن هنالك بعض الخطوط العريضة والتفاصيل الدقيقة، في تاريخ كوش تحتاج إلى تعديل. فعلى الرغم من أن رايزنر نقّب كل الجبانات الملكية لنبتة ومروي، إلا أنه لم يكمل دراسة المواد، التي حصل عليها من هذه الجبانات. وعلى ضوء ذلك، بدأ دانم في إصدار سلسلة من المؤلفات عن حضارة كوش (نبتة ومروي)، عالج فيها آراء رايزنر، ما مثل مرحلة ثانية مهمة في تاريخ البحث الآثاري للفترة الكوشية (Dunham 1946: 380).

قامت بعثة جامعة أكسفورد بأبحاث آثارية في السودان في عدد من المواقع، التي تؤرخ للفترة الكوشية. ففي عام ١٩١٣م أجرى الآثاري غارستتاج حفريات في موقع الكوة، ثم خلفه ماكدام في الأربعينيات. وفي عام ١٩٢٢م، أجرت البعثة نفسها حفريات في صنم أبو دوم، بحفر جبانة ترجع للفترة النبتية، ومعبد أمون الذي بناه الملك تهارقا. وقد توصلت البعثة إلى نتائج مهمة عن هذا الموقع (Griffith 1922-1923). كذلك، قامت الوحدة الفرنسية بالسودان تحت قيادة الآثاري جون لكلانت بحفريات في موقع صادنقا، الذي احتوى على آثار تؤرخ للفترة النبتية، وقد نُشرت مؤلفات عن أعمال لكلانت هذه (Leclant 1961; 1963; 1965).

وقد شجّعت هذه الدراسات والأبحاث حركة البحث الآثاري في الحضارة الكوشية. وتمثّل ذلك في ظهور عدة مؤلفات ودراسات تناولت موضوعات عدة، مثل: مقال الآثاري هاري سميث عن: (إشكالية الانتقال من نبتة إلى مروى) في عام ١٩٥٥م، ومقال ديكسون عن: (أصل نبتة) في عام ١٩٦٤م، وكتاب أنطوني آركل عن: (تاريخ السودان) عام ١٩٥٥م، ومن ثم مؤلف وليم آدمز الذي تناول فيه موضوعات متعددة عن الحضارة الكوشية (Adams 1977).

البحوث والدراسات الآثارية، وارتباطها بتطور علم الآثار:

عُرف معظم تاريخ إقليم النيل الأوسط القديم (السودان) من خلال المصادر، التي كُشف عنها خلال الأعمال الإنقاذية والحفريات الأثرية، التي أجريت خارج إطار حملات إنقاذ آثار النوبة، ولكنها جرت بمنهجية دراسة الأعمال الإنقاذية ذاتها. ولعل هذا يعكس محدودية المناهج والدلائل، التي اعتُمد عليها، في جانب، والسرعة التي تمت بها بعض هذه الأعمال، في الجانب الآخر، ما أدى في كثير من الأحيان إلى الحصول على نتائج غير مؤكدة (Torok 1992: 111).

إن الدراسات، التي قامت في وادي النيل، بشكل عام، وقدّمت في السودان بشكل خاص، في تلك الفترة، صورة معقدة عن هذا البلد، تمثلت في البحث عن امتداد الإمبراطورية المصرية، إضافة إلى سيادة النظرية العرقية الدونية لأصحاب الحضارة الكوشية. فقد كان الباحثون مشغولي البال باكتشاف الإمبراطورية البيضاء في إفريقيا، في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين (Trigger 1982: 224). وقال بدج (Bidge, W) على سبيل المثال: "إن كل المعابد والقلاع والحصون والقصور والأديرة في النوبة هي من أعمال الأجناس الأخرى الأجانب غير النوبيين"، وذهب إلى أبعد من ذلك بأن نسبها إلى الإمبراطوريتين المصرية والفينيقية (Ibid: 224).

إن الأمر الأكثر أهمية هو تباين الإستراتيجيات والأهداف في علم الآثار. وهذا الأمر لم يعد موضع خلاف، والحقيقة أنه ليس هنالك اتفاق في الآراء حول الأولويات والمناهج للبحث الآثاري في السودان. والجدير بالذكر هنا، أن كل هذه المناهج، التي اتبعت والمتّبعة الآن، فشلت في لفت اهتمام المجتمع السوداني لأهمية الآثار. وحتى المسوحات الأثرية، التي تُجرى بين وقت وآخر، تحمل التناقض التام بين ما يظُن أنه منهج آثاري متجانس، من جهة، وبين منهج المؤرخين ومؤرخي الفن، من جهة أخرى. وهنا يحس الباحث توروك أن هذه التناقضات فعلية وليست اسمية. ويبدو أن الصراع يتسع بين الآثاريين كمؤرخين للحضارة، في جانب، وبين الوضع الحقيقي للأبحاث الفيلولوجية، التي تهتم بالمصادر الكتابية ، من جانب آخر (Torok 1992: 111).

وعلى ذلك، فيجب ألا نغفل ونهمل تاريخ بلاد السودان وثقافتها. وينبغي أن تقوّم المعالجات، التي تمت، والتي كتبت بواسطة آثاريين من خلال استخدامهم للدلائل الآثارية، مثال ذلك نظرية رايزنر عن سكان حضارة المجموعة (أ)، الذي رأى

أنهم مجموعة من المهاجرين المصريين، اعتماداً على تشابه فخارهم مع الفخار المصري، الذي يؤرخ لفترة ما قبل الأسرات (ibid: 111-112).

إن الأجيال الأولى من الآثاريين، الذين درسوا التاريخ النوبي القديم، خاصة مَنْ درسوا الحضارة الكوشية، انجذبوا نحو النقوش والكتابات الملكية، التي حُفظت منذ القرون الأولى لمملكة كوش، التي بدأت بملوك الأسرة الخامسة والعشرين. ويعزى ذلك لخلفيات الآثاريين المصرية. وقبل دراسة أي من النواحي الأخرى من التاريخ والثقافة النوبية، التي تمثل البعد الصحيح للدراسة، بدأت تظهر وتتضح صورة العقائد الملكية الكوشية، على أساس هذه المصادر النصية، ما أثر في التصنيفات التاريخية والثقافية لإقليم النيل الأوسط القديم (Torok 1995: 11). كما أن بعض الآثاريين الأوائل لم يكتشفوا موقع المستوطنات والجبانات الملوكية الكوشية، خلال مجريات حملتي إنقاذ آثار النوبة الأولى والثانية، وفي فترة لاحقة بدأ بعض الباحثين، من أمثال دون لكلانت وفرتز هنتزا وسيف سودربيج وآخرين، دراسة هذه المواقع.

وعلى الرغم من أن هؤلاء كانوا متخصصين في علم المصريات، إلا أنهم بدأوا في كشف الملامح المحلية للثقافة الكوشية (ibid: 11). غير أن رايزنر حين قدم إلى منطقة النوبة لإجراء المسح الآثاري الأول، كانت المفاهيم السابقة راسخة في ذهنه، وهي المفاهيم العرقية ونظرية الانتشار الثقافي والبحث عن الإمبراطورية البيضاء في إفريقيا، إضافة إلى نظرية الهجرة. ويُلتمس ذلك بوضوح في رؤيته عن أصل ملوك نبتة، وترجماته الخاطئة لبعض النصوص، وإغفاله لعادات الدفن الكوشية المستمرة من أقدم الحقب (حضارة كرمة). فقد فسّر رايزنر التاريخ الثقافي النوبي في سلسلة من التفسيرات العرقية، إضافة إلى موجات ثقافية وفدت إلى منطقة النوبة من الشمال. ومن ثم هاجر إليها الليبيون ليؤسسوا نبتة، إذ يعتقد رايزنر أن هناك هجرة لليبيين الجنوبيين نحو نبتة، وفيها دُفن أول زعيم ليبي في القبر رقم (١) بالكرو. واستند في ذلك إلى عدد من رؤوس السهام في الكرو، يعتقد أنها ذات أصل ليبي، وعلى لوح حجري به كتابة تشير إلى الملكة تابيري ابنة ألارا وزوجة بعانخي. ويرى رايزنر أنها لُقبت باسم "سيدة التمحو" أي الليبيين الجنوبيين (Reisner 1919: 227). وقد سار مع رايزنر في هذا الاتجاه أنطوني آركل، خاصة في مؤلفه (تاريخ السودان) (Arkell 1961). إلا أن هذه الأفكار كانت عنده بقدرٍ يسير، أقل من سيطرتها على رايزنر، لأنه كتب في مرحلة انهيار هذه المفاهيم (Trigger 1982: 224).

إن هذه المفاهيم السابقة كانت تتماشى مع الأوضاع السياسية وقتذاك، وهي فترة الاستعمار وفرض الوصاية. فقد كانت الدول المستعمرة وقتها ترفع شعار انتشال الشعوب المستعمرة الفقيرة في إفريقيا من واقعها المتخلف، في حين كانت حضارة تلك الشعوب عميقة الجذور تدل عليها آثارهم، التي تقف شاهداً مادياً حتى الآن. وكان رايزنر، وغيره من الآثاريين آنذاك، متأثرين أشد التأثير بتلك المفاهيم، ما انعكس على تفسيراته للآثار الإفريقية بشكل عام، والكوشية على وجه الخصوص.

وما يؤخذ على رايزنر في الجانب المنهجي تسرعه في حفر المواقع النبتية. فقد حدد هذه المواقع للحفر وكأن ذلك من أجل السبق العلمي لا غير. وقد ذكر رايزنر أن التنقيب في مقابر أربعة من ملوك الأسرة الخامسة والعشرين في جبانة الكرو الملكية، هم كاشتا وبيي وشبكا وشباتكو، اكتمل في خمسة عشر يوماً فقط! وقد خرج من ذلك بسلسلة من الاكتشافات المذهلة، لم يسبق لأي بعثة أن حصلت عليها في هذه الفترة الوجيزة (Reisner 1921: 23). ولا نريد أن نحكم على رايزنر من خلال مفهوم اليوم (القرن الحادي والعشرين)، لأن علم الآثار تطور تطوراً كبيراً عن تلك الفترة، التي نقّب فيها رايزنر ، ومن ثم يمكن أن يُلتمس العذر له في ذلك الوقت، باعتبار أن تقنيات علم الآثار تختلف بين الماضي والحاضر. ولكن لا نلتمس له العذر في السرعة الكبيرة، التي حفر بها جبانة الكرو الملكية.

كذلك، يؤخذ على رايزنر اهتمامه وانشغاله بالنصوص المكتوبة المتعلقة بالعقائد الملوكية، لأنه عالم مصريات في المقام الأول (أستاذ علم المصريات في جامعة هارفارد الأمريكية)؛ لذلك انصب اهتمامه على الجانب الديني والملكي من خلال حفرياته، التي تركّزت بشكل كامل على تنقيب الجبانات الملكية في المواقع النبتية في الكرو ونوري وجبل البركل، والمروية في البجراوية الشمالية والجنوبية والغربية.

ومن ثم أهمل رايزنر تماماً البحث في حياة عامة الشعب، التي تتمثل في مواقع المستوطنات السكنية. فقد خلت كتاباته عن المجتمع النبتي، وركّزت فقط على دراسة الأهرامات الملوكية والنقوش والكتابات الدينية، كما أنه لم يجر مسحاً، وإنما عَمِل في مواقع شاخصة.

وقد تابع دانم أعمال رايزنر ودرس المواد الأثرية، التي تحصّل عليها من حفرياتهما، وكتب التقارير، التي لم يتمكن رايزنر من كتابتها ونشرها قبل وفاته. وقد كرس دانم نفسه لدراسة هذه المواد بصورة مستفيضة، ونشرت له عدة مؤلفات (Dunham 1947, 1951, 1966, 1970)، صحح فيها بعض آراء رايزنر اعتماداً على ما تكشّف له من حقائق. وتُعد دراسات دانم هذه أكثر واقعية لأنها كانت متأنية. وبحكم محدودية البحث مع رايزنر سار دانم في خط رايزنر، ولكن في اتجاه تصحيحه فقط؛ فلم يتوسع في الجوانب، التي لم يتطرق إليها رايزنر، مثل المجتمع النبتي وإعادة كتابة التسلسل التاريخي وغيرها من الآراء، التي عدلت من بعد دانم عن طريق الباحثين المتأخرين. ولعل هذا ما دفع تريقر إلى أن يقول إن علماء آثار تلك الفترة لم تكن تسيطر عليهم جميعهم الأفكار العرقية، وغيرها من المفاهيم، التي ذكرت سابقاً (Trigger 1982: 224). والدليل على ذلك أن دانم أعطى جهداً مقدراً في البحث عن أصول مصطلح نبتة، ورأى أن هذا المصطلح يعطي مبرراً للفصل بين حضارتي نبتة ومروي، جاعلاً من مصطلح (مملكة كوش) حلاً لإبطال هذا الفصل، بحيث يُطلق ليدل على فترة واحدة ذات مسميين مختلفين. كما عدّل دانم في السنوات، التي حددها رايزنر للفصل بين كل جيل وآخر في جبانة الكرو، لتصبح عنده عشرين عاماً بدل ثلاثين.

وفي الفترة، التي أعقبت عام ١٩٥٠م (فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية)، بدأ علم الآثار يسير في اتجاهات جديدة وسّعت أفق هذا العلم، وبدأت مرحلة مهمة من مراحل تطوره. وكان العامل الأساس وراء هذا التغيّر هو توظيف بعض العلوم الأخرى، في خدمة علم الآثار وأهدافه. فقد غيّرت هذه العلوم والتخصصات مسيرة علم الآثار، من المنهج الوصفي إلى نظام دراسي تحليلي. وقد انعكس ذلك في ظهور نظريات ومناهج جديدة.

شهدت هذه الفترة في النوبة تغيّراً واضحاً في إستراتيجيات البحث الآثاري؛ فمثلاً كان لحملة (اليونسكو) لإنقاذ آثار النوبة الأثر الواضح في زيادة الاهتمام العالمي بالآثار السودانية. فَقَدِمَ الآثاريون إلى النوبة يحملون معهم مميزات هذه المرحلة المهمة من تطور علم الآثار، وفهم منهجي جديد متوسع عن الآثار والحضارة النوبية. فكان التغيير والتفسير من فهم ودراسة الانسان القديم والحضارة من وجهة نظر علم الآثار الأنثروبرولجي، إلى فهم السلوك البشري بصورة عامة (ibed: 225). وتحررت النظريات، التي ظهرت في هذه الفترة من هيمنة النظريات التقليدية السابقة، والإستراتيجيات القديمة لعلم الآثار، وشكّل هذا قاعدة علمية واسعة.

تتضح سمات هذه المرحلة بوضوح في دراسات الباحث ديكسون، عن أصل حضارة نبتة (Dixon 1964)، التي ناقش فيها هذا الموضوع بصورة جدية، مستعيناً بأدلة آثارية واضحة المعالم، منتقداً آراء رايزنر السابقة. وكانت أهم هذه الأدلة هي استمرار عادة الدفن تحت تلال ركامية، منذ الفترات النوبية المبكرة (المجموعتان أ و ج). كما أن العادات السودانية تبدو واضحة تماماً في مقابر الكرو، لأن معظم مقابر الأسلاف في ذلك الموقع كشفت عن عادة الدفن على "عنقريب"، وهي عادة جنائزية كانت تمارس منذ عهد المجموعة (ج). وعلاوة على ذلك ظهرت بوضوح على الصور والتماثيل، التي تركها الملوك، السمات الأفريقية الخالصة.

وقد اختص الكوشيون بملابس مميزة، خاصة الطاقية، التي تعد أحد رموز الملكية في مملكة نبتة. إضافة إلى دلائل أخرى قوية، أهمها الأسماء المحلية الخالصة لملوك وملكات نبتة، واختلاف وراثة العرش بين الكوشيين والمصريين (عند المصريين عن طريق الأب مباشرة، وعند الكوشيين من الأخ للأخ أو من الأخ إلى ابن أخته، أو من الملك إلى أكبر أفراد العائلة المالكة وأقواها). وتمثل دراسة ديكسون هذه بداية الالتفات للحقائق التفصيلية (Dixon 1964: 130-131).

أما وليم آدمز، فقد كانت آراؤه تحمل النزعة الأنثروبولوجية بحكم أنه أمريكي الجنسية. وفي أمريكا يدّرس علم الآثار على اعتبار أنه فرع من علم الأنثروبولوجيا. فقد فسّر التاريخ النوبي في ضوء هذه النزعة اعتماداً على الاستمرارية في الثقافة السودانية، ويتضح ذلك جلياً لمن يقرأ

مــؤلفــه (Nubia Corridor to Africa 1977)، الذي استخدم فيه منهجاً جديداً في دراسة الحضارة الكوشية، خاصة الفترة النبتية منها.

شكلت هذه المرحلة، أيضاً، الأساس المتين، الذي انطلقت منه الأبحاث والدراسات عن حضارة نبتة، التي أنجزها كل من كندال وتوروك وموركوت ويلين. فقد اعتمدت بحوثهم على مراجعة البحوث الآثارية والدراسات السابقة وتحليلها، والوقوف على الأدلة الآثارية. وقد كانت هذه الدراسات ذات فائدة عظيمة، خاصة في تصحيح المفاهيم القديمة، ومن ثم ارتادت آفاق جديدة في البحوث الآثارية للفترة النبتية.

فيما يخص الباحث تيموثي كاندل، وهو آثاري كان يعمل في قسم الفن المصري وفنون الشرق الأدنى بمتحف بوسطن للفنون الجميلة، وهو المتحف الذي يُختزن فيه كمٌ من الآثار النبتية، فقد ارتاد مجال الدراسات الكوشية في عام ١٩٨٢، بنشر مؤلفه (Kush: Lost Kingdom of the Nile). ثم انطلق بعد ذلك في البحث عن الفترة النبتية، مركزاً على جوانب لم يتطرق إليها أسلافه، أمثال رايزنر ودانم، في مجال العقائد الملكية، والتسلسل التاريخي لجبانة الكرو، والقصر الملكي النبتي (قصر الملك إسبلتا في موقع جبل البركل). وقد أعطى كندال لجبانة الكرو تسلسلاً تاريخياً أطول من الذي وضعه رايزنر، اعتماداً على تأريخ بعض الأواني، التي عثر عليها بالقبر (١)، وتعود إلى أواخر المملكة المصرية الحديثة. كما أظهر كندل اهتماماً خاصاً بالنقوش الملكية بجبل البركل، وخلص إلى نتيجة مفادها أن الملوك النبتيين كانو قد ربطوا أصلهم بالإله آمون، وبوصفهم يمثلون حلقة الوصل بين الإله والشعب (Kendall 1982). وتُعد دراسات كندل مواكبة للتطور الحالي لعلم الآثار، في استخدامه الحاسب في إعادة رسم المعابد بموقع جبل البركل والبنيات الفوقية للمدافن الملكية بموقع الكرو.

أما الباحثة الأمريكية جانيس يلين (Yellin)، فقد ركزت في دراستها على دور الديانة المصرية، في تكوين السلطة السياسية النبتية. وأوضحت أن العلاقة بين الملوك النبتيين والآلهة المصرية كانت تمتاز بالتعقيد، وكانت تمثل لهم وسيلة للاستيلاء على السلطة والاحتفاظ بها في أسر وصفت بالملكية، دون غيرها من عامة الشعب (Yellin 1994: 8). وتعد هذه الدراسة إضافة مهمة لمعلوماتنا عن كيفية تشكيل مملكة نبتة. وقد اعتمدت على المواد المتحفية المعروضة الآن في متحف بوسطن، وعلى تقارير رايزنر. يمكن القول -من ثم- إن هذه الدراسة تعد من الدراسات القيمة، التي اعتمدت على تحليل وتفسير الأدلة الآثارية بشكل منطقي.

اقتحم الباحث المجري توروك مجال الدراسات الكوشية، على الرغم من أنه لم يجر أي أعمال آثارية في السودان، بل قام بزيارة استكشافية لبعض المواقع الكوشية عام ١٩٨٨م. وجاءت آراء هذا الباحث بناءً على تقارير الحفريات، التي جرت في المواقع الكوشية، ومن ثم مراجعة كل الدراسات والكتابات السابقة ليضع العديد من الآراء الحديثة القيّمة، التي تتعلق بالأيدولوجيه الدينية ذات الجذور المصرية لملوك نبتة، وظهور الدولة النبتية والتسلسل الوراثي لملوكها. كما أنه انتقد بعض الآراء السابقة نقداً بناءً، مواكباً للتطور الذي صاحب علم الآثار، الذي ينادي بتقليل الاعتماد على الحفر في البحوث والدراسات.

أما الباحث البريطاني روبرت موركوت (Morkot)، فقد طرح أفكاراً جيدة عن حضارة نبتة، وعن فترة المملكة المصرية الحديثة في النوبة، وعن زعم بعض الباحثين أن هناك فترة مظلمة بين نهاية احتلال المملكة الحديثة وبداية بزوغ حضارة نبتة. فقد شق موركوت طرقاً جديدة في البحث عن آثار نبتة، وحاول أن يربط كل خيوط الأحداث في مصر والنوبة والشرق الأدنى. وقد ذهب أبعد من ذلك ليبحث عن نبتة في النصوص الآشورية، إلى أن خرج بنظرية ظهور السلطة السياسية النبتية، والظروف التي أدت إلى تكوينها، إضافة إلى تأريخ جبانة الكرو الملوكية، وبداية الدفن فيها، ووراثة العرش، والنسل الملكي. وقد جاءت نظريات موركوت بآراء لم يسبق أن تطرق لها أحد من الباحثين قبله خاصة فيما يتعلق بالاقتصاد النبتي (Morkot 1991, 1994a, 1994b).

وعلى ذلك يمكن القول إن معظم البحوث والدراسات الآثارية، التي أجريت في مواقع حضارة نبتة، خرجت بنظريات متعددة عن هذه الحضارة، إلا أن هناك بعض المواقع، التي أرخت إلى الفترة النبتية لم تكتمل فيها أعمال التنقيب. فموقعا الكوة وصنم أبو دوم لم ينالا ما يستحقانه من تنقيب، ولم تجر أي دراسات تفصيلية على هذين الموقعين. إن إكمال تنقيب هذين الموقعين قد يمد الباحثين بأدلة آثارية جديدة، وبمواد تساعد في حل العديد من المشكلات، التي وقف عندها الباحثون كثيراً، خاصة أن كلا

الموقعين لهما أهمية خاصة في خريطة الحضارة النبتية.

خلاصة:

إن البحوث والدراسات الآثارية، التي أجريت في مواقع حضارة نبتة تمخضت عنها نظريات وآراء متعددة، في مختلف أوجهها؛ فمنها ما تناول الأصل، ومنها ما تناول السياسة والدين. وقد حاولنا تقويم هذه النظريات وربطها بتطور علم الآثار في ذلك الوقت، خاصة أن هذه الدراسات ظهرت في بداية القرن الماضي، معتمدين في ذلك على الأدلة، التي استندت إليها، والظروف، التي نشأت فيها.

وكانت بداية هذه النظريات تلك الآراء، التي ظهرت على يد رايزنر في العقد الثاني من القرن الماضي، إذ يعد رايزنر أول من أجرى حفريات في مواقع الحضارة النبتية. ويمكن تقييم أعماله في النقاط الآتية:

١- جاء رايزنر للعمل في السودان وهو مؤمن بالنظرية العرقية البحتة، التي كان هدفها الأساس خدمة الجوانب السياسية ذات الأغراض الاستعمارية في إفريقيا، بصفة عامة، وفي السودان، بصفة خاصة، تمشياً مع طبيعة علم الآثار في ذلك الوقت.

٢- مع أن رايزنر يعد أول من أجرى حفريات في المواقع النبتية، وكشف عن الجزء الأعظم مما تبقى من الأطلال والمقابر والأهرامات في المواقع المختلفة، إلا إنه يؤخذ عليه التسرع في إجراء هذه الحفريات، وانعكاس النظريات السائدة وقتذاك على نتائجه وآرائه.

٣- لم تكن إستراتيجيات رايزنر واضحة المعالم في أبحاثه؛ فقد كرس بحثه على حفر أكبر عدد من مواقع حضارة نبتة، في أقل وقت ممكن. على الرغم من أن ذلك قد يعود في الأصل للنظرية السائدة، وليس لضعف المنهج الذي اتبعه.

٤- اهتم رايزنر، لكونه عالم مصريات، في دراساته بالطبقة العليا الحاكمة في حضارة نبتة، عندما نقّب فقط المواقع الآثارية البارزة، المتمثلة في الجبانات والأهرامات الملكية، ودراسة النقوش والكتابات الملكية، ولم يجر أي مسح آثاري للتعرف على المواقع الأخرى لهذه الحضارة. ولذلك أهمل رايزنر دراسة المواقع النبتية غير البارزة، ما تسبب في افتقار بحوثه إلى أي معلومات تخص عامة الشعب النبتي.

٥- جاء رايزنر للعمل في السودان بخلفية النظر للآثار السودانية على أنها امتداد طبيعي للآثار الفرعونية جنوباً، وكونها منطقة ظل حضاري.

وعلى الرغم من ذلك تعد أبحاث رايزنر ودراساته الأساس، الذي كشف النقاب عن الحضارات السودانية. وقد استطاع أن يضع اللبنات الأولى للتسلسل التاريخي الكوشي، من خلال دراسته للجبانات الملوكية، التي لم يسبقه أحد. وقد اعتمدت كل دراسات الآثاريين المتأخرين على أعماله، لذا يمكن أن نعدّه (أب الآثار السودانية).

أما الآثاري أنطوني آركل، فقد كتب عن الفترة النبتية من إستراتيجيات رايزنر نفسها؛ ولكن يبقى هناك فارق واضح بينهما، وهو أن آركل لم يكن يؤمن بالنظريات العرقية والنظريات الانتشارية بشكل مطلق، لأنه كتب في فترة اضمحلال هذه المفاهيم.

ثم توالت الأبحاث والكتابات عن الحضارة السودانية بعد عام ١٩٥٠م ، بواسطة علماء يحملون طرق ومناهج بحثية جديدة، مستفيدين مما طرأ على علم الآثار من تطور، ومن العلوم الأخرى المساعدة لعلم الآثار، محاولين معالجة التاريخ الثقافي لبلاد السودان.

ومنذ الثمانينيات من القرن الماضي وحتى الآن، ظهرت مجموعة من الدراسات في الحضارة الكوشية، اتسمت بالمميزات الحديثة لعلم الآثار كمصدر للمعلومات. وقد اعتمد أغلبها على مراجع وتقارير الحفريات الماضية، ودراسة المواد المتحفية المستخرجة من هذه الحفريات، وعالجت عدداً من الموضوعات، التي كانت غائبة عن أذهان الكثيرين من الباحثين، ما انعكس في تطور الفهم وازدياده عن الحضارة النبتية، التي عالجتها النظريات السابقة، التي كانت تنسبها للعنصر الليبي تارة، وللعنصر المصري تارة أخرى؛ ولكن تبقى نبتة سودانية الأصل والمنشأ.

أ. جمال جعفر عباس: قسم الآثار - كلية الآداب والدراسات الإنسانية - كريمة - جامعة دنقلا - السودان.

المراجع

أولاً: المراجع غير العربية:

Adams, W. Y. 1977. **Nubia corridor to Africa**, Allen Lane University Press, Princeton.

Arkell, A. J. 1961. **A History of Sudan from Earliest Times to 1821**, 2nd ed., The Athlone Press, London.

Daniel, A. J. 1975. **A Hundred and Fifty Years of Archaeology**, Duckworth, Britain.

Dixon, D. M. 1964. "The Origins of the Kingdom of Kush: Napata-Meroe", **JEA**, vol. 50: 121-132 London.

Dunham, D. 1946. "Notes on the History of Kush: 850 BC.-350 AD.", **AJA**, vol. 3: 380-90.

-------------- 1947. "Outlines on the Ancient History of Sudan", **SNR**, vol. Xxviii, Khartoum.

-------------- 1950. El Kurru, **RCK**, 1, Boston.

-------------- 1963. "The West and the South Cemeteries of Meroe", **RCK**, II, Boston.

-------------- 1970. **The Barkal Temples**, Boston.

Groffith, F. L. 1922. "Oxford Excavations in Nubia", VIII-XVII, Napata, Sanam Temple, Treasuty and Town, **LAAA** 9: 67-171.

-------------- 1923. Oxford Excavations in Nubia, **LAAA** 10: 73-171.

Kendall, T. 1982. **Kush: the Lost Kingdom of the Nile**, Boston.

-------------- 1990. "Discoveries at Sudan's Sacred Mountain of Jebel Barkal Reveal Secrets of Kingdom of Kush", **National Geographic**, vol. 178 No. 5: 96-126 Washington.

Leclant, J. 1961. "Sur un Contropide de Menat au nom de Taharqa, Allaitement et Apprition Royale mel, Mariette", **BDE** 32.

-------------- 1963. "Kashta, Pharaon en Egypt", **ZAS**, vol. 90: 74-78.

-------------- 1965. Recherches sur les Mounuments Thebains de la xxv dynastic dite Ethiopienne", Caise Institut Francais d' Archeologie Orientate, Bibliotheque d' Etude, vol xxxvi: 160-61.

Morkot 1991. "Nubia in the New Kingdom: The Limits of Egyptian Control". In: W. V. Davies (ed), **Egypt and Africa: Nubia from Prehistory to Islam**, London, 294-301.

-------------- 1994a. "The Foundations of the Kushite State: a Response to the Paper of Laszio Torok". In: F. Geus (assembled): **Nubia Thirty Tears Later, Society for Nubian Studies Eighth International Conference 11-17 September 1994**, Pre-Publication of Main Papers, Lille.

-------------- 1994b. "The Nubian Dark Age". In: Ch. Bonnet (ed.), **Etudes Nubiennes Conference de Geneve, Actes du Vlle Congres International d'Euudes Nubiennes 3-8 Septenbre 1990**, vol. II: 45-47, Gebeve.

Reisner, G. A. 1917. "Excavation at Napata the Gapital of the Ethiopia", **MFAB** Vol xv, no 89: 25-34, Boston.

-------------- 1919. "Discovery of Tombs of the Egyptian XXV Dynasty at El Kurru in Dongola Province", **SNR** vol II:237-57.

-------------- 1921. "The Royal Family of Ethiopia", **MFAB** vol. Xix no. 112: 29-35, Boston.

Torok, L. 1992. "Ambulatory Kingship and Settlenent History, A Study on the Contribution of Archaeology to the Meroitec History". In: Bonnet, Ch, (ed.), **Etudes Nubiennes**, vol. I: 111-126, Geneva.

-------------- 1995. "The Birth of an Ancient African Kingdom: Kush and her myth of State in the first Millenium BC", **Cahers de recherches del instit de Papyrologie et d' Egypyolohie, de Lille, Supplement No. 4**, Universite Charles, de, Gaulle, Lille iii.

Trigger, B. 1982. From Reisner to Adams: Paradigms of Nubian Cultural History". In: Plumpey, J. M. (ed.), **Nubian Studies**, Cambridge, 223-26.

Yellin, J. 1994. "Egyptian Religion and the Formation of Napatan State", **Paper Presented at the 8th International Conference for Nubian Studies**, Lille.